

# الأقصوصة العربية في فلسطين المحتلة

## بقلم صبري صافظ

يدافع عن هذا الحق بصورة مفارقة لتلك التي قدمتها أناشيد العودة الرومانسية التي تغنى بها الأدب الفلسطيني في المنفى ، ولأنه يحارب معركة ضارية ضد محاولات الصهيونية الدائمة لاذابسة الشخصية الفلسطينية في هذا الكيان العنصري المشوه الذي أقيم فوق أرضها ، وضد السياسة المنهجة الرامية الى تجريد العرب من مشاعرهم القومية ، وطمس شخصيتهم وتمييعها ، واسدال ستار كثيف بينها وبين تاريخها وتراثها .

فقد خلق هذا الأدب الجسور القوية بين العربي الفلسطيني وتاريخه وتراثه من جهة ، وبينه وبين حركات التحرر الوطني في المنطقة العربية وفي العالم الخارجي من جهة أخرى . وفوق هذه الجسور عبرت عشرات الأعمال الفنية والقيم الإنسانية التي أيقظت في الإنسان العربي في الأرض المحتلة إنسانيته وقوميته معا ، واستثارت فيه الرغبة في تحرير الأرض وعمقت احساسه بتقلل جنوره فيها .

والأدب الفلسطيني المقاوم في الأرض المحتلة امتداد للأدب الذي قاوم الاستعمار الإنكليزي ، والذي وفف في وجه مخططات الهجرة اليهودية قبل ظهور الدولة اليهودية بسنوات طويلة . وامتداد للأدب العربي المقاوم وللأدب الثوري والإنساني مهما كانت جنسيته . فـشعر الأرض المحتلة الذي حظي باهتمام كبير عقب حرب يونيو امتداد للشعر الثوري الفلسطيني عند عبد الرحيم محمود وأبي سلمى وإبراهيم طوقان ومطلق عبد الخالق . وللشعر الثوري العربي والإنساني عند بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وعبد الرحمن الشرقاوي ولوركا ونيرودا وأراغون . وفصص الأرض المحتلة امتداد طبيعي هي الأخرى لرحلة الأقصوصة الفلسطينية مع التطور والنضال عند محمود سيف الدين الإيراني وعبد الحميد ياسين ومحمد أديب العامري وفارس ملحس ونجاتي صدقي وغيرهم . امتداد مقار لذلك الامتداد الذي قدمته الأقصوصة الفلسطينية في المنفى عند سميرة عزام وعيسى الناعوري وغسان كنفاني ويوسف جاد الحق واحمد العناني ونبيسل خوري وغيرهم .

وإذا كانت النماذج التي وصلتنا من القصص العربية المكتوبة في الأرض المحتلة شحيحة للغاية إذا ما قيست بوفرة الشعر النسبية ، فلم استطع ان اعثر على أكثر من ثلاث وثلاثين قصة قصيرة كتبت في الأرض المحتلة خلال السنوات الثلاث التي أعقبت حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، فان هذه النماذج القليلة قادرة على ان تؤكد لنا حقيقتين : أولهما ان هناك حركة قصصية ناضجة في الأرض المحتلة ، تشكل

يفتح الأدب الفلسطيني المكتوب في الأرض المحتلة عيون القارئ العربي على عالم جديد ، وعلى آفاق بكر ، وعلى رؤى مفارقة لنفس القضايا التي سبق ان تناولها الأدب العربي في مختلف البلدان العربية . ليس فقط لأنه يصدر من قلب الجرح الكبير الذي لا يعرف المساومة ، ويعبر عن احساس عميق ومعاناة حقيقية لمشرات القضايا والاحاسيس التي تناولها الأدب العربي من قبل من الخارج ، من منطلق المشاهدة او حتى اصطناع المشاركة . ولكن ايضا لأنه استطاع في نماذجه الجيدة العديدة ان يكون رفيقا فنيا لحركات المقاومة والتحرير التي جرت فوق الأرض الفلسطينية المحتلة . وان يكون شاهدا على مجازر العسف والارهاب . . شاهدا يسجل ويحفظ ويستثير . . يسجل هذا الواقع الضاري بصورة ندعو الى تجاوزه وتخطيه ، وتكشف لانسانيته وتفصح زيف المفتصب الصهيوني وادعاءاته . . ويحفظ الإنسان الفلسطيني على النضال . . ويستثير في داخله كل الذكريات والقيم والاحاسيس التي يعمل الاستعمار الاستيطاني على تآكيدها حتى يكرس الحيولة بين العرب في فلسطين وتاريخهم وأرضهم وتراثهم ، وتعود الالفنة المتقدمة بين الإنسان والأرض ، ويؤثر في داخل العربي الفلسطيني الاحساس البقيني بأن الأرض أرضه والوطن وطنه برغم كل الاوضاع الجائرة والحواجز المختلفة .

ومن هنا فان الأدب الفلسطيني الناضج أدب مقاوم بحقق – ويرغم الذين لا يدركون ان النوعية الخاصة للمعركة في الأرض المحتلة والظروف القاسية التي يصدر هذا الأدب في ظلها ، هي التي تمنح المقاومة في هذا الأدب ابعادا جديدة ، وطبيعة مفارقة لما ألفناه من مقاومة الخطب والشعارات والمعارك التقليدية الواضحة . . ادب مقاوم بحق لأنه استطاع ان يسهم في بلورة الشخصية القومية وفي ايقاظها بعد ضمة القهر والهزيمة ، وان يذكي روح الصمود والمقاومة في وجدان الشعب العربي ازاء محاولات الدولة اليهودية الراغبة في ( تنظيف ) الأرض الفلسطينية من الفلسطينيين ، والحقا البقيسة الباقية منهم بفلول شعبهم المشرد حتى تقطع الطريق على كل أمل في العودة – كما يقول توفيق زياد – وحتى يتحقق لها تآكيد التقلل الراسي للمهاجر اليهودي في أرض فلسطين بعد ان أمنت له بالفرد والعدوان التقلل الأفقي فيها ، ولأنه استطاع ان يحارب ببسالة وشرف في معركة البقاء فوق أرض الآباء والاجداد ، ويشعل منارات الصمود والمقاومة وسط هذا الليل الثقيل من الاضطهاد القومي البشع ، ولأنه يدافع عن حق اللاجئين في الاوبة الى الأرض الام ،

تيارا فنيا له سماته المشتركة وملامحه المميزة عن أي تيار أقصوصي آخر من تيارات الأقصوصة العربية المعاصرة . وتانيتهما ان السمات المشتركة والارض الفكرية المشتركة لم تحل دون تمايز كل كاتب من الكتاب العشرة الذين قرأت لهم ونفرده . ولنبداً اولاً بالحديث عن السمات المشتركة ..

تتسم معظم الافاصيص التي استطعت العثور عليها من افاصيص الارض المحتلة بمجموعة من الخصائص والرؤى المشتركة التي تكسب هذه النماذج مذاقها الخاص وطبيعتها المفارقة لطبيعة الاقصوصة الفلسطينية التي كتبت في المنفى . فافاصيص الارض المحتلة تختلف بصورة جذرية عن الافاصيص العربية التي تناولت بصورة او باخرى مأساة فلسطين . ليس فقط لان هذه الاقصوصة لم تكتب من بعيد .. من الخارج ، بل كتبها الفصاصون من قلب النجرح .. كتبوا عن الغرى والبيوت المهذومة وهم يقفون امام انقاضها ، وعن المظاهرات الدامية وهم يلمسون بأيديهم دماء المتظاهرين قبل ان تجف ، وتردد في آذانهم اصدااء هتافاتهم .. وعن لحظات اللقاء الرهيبة وهم يشهدون اغروراق الاعين بالدموع وتعثر الالسنه بالكلمات .. وعن العسف والاضطهاد في داخل زنانات السجن الكئيبه .. وعن الارض المصادرة وفي ايديهم اوراق نزع الملكية الساخنة ، وتحت اعينهم الاجسام الممددة امام التراكورات .. وعن عبير البرتقال وهم يتسمنونه ، وعن اشجار الزيتون وهم يتفياون ظلالها .. ليس لكل هذا فحسب تكسب اقصوصة الارض المحتلة مذاقها الخاص ، ولكن ايضاً لان الاقصوصة المكتوبة في فلسطين المحتلة تطرح رؤى جديدة لنفس القضية الفلسطينية القديمة، وتستشرف ابعادا مفارقة لتلك التي ألفناها ، وتكشف عن جزئيات بسيطة للغاية ولكنها ظلت برغم بساطتها غائبة عن آفق الاقصوصة العربية التي كتبت عن فلسطين لسنوات طويلة .

ومن البداية سنجد الاحساس العميق بالارض - ملك الارض التي تلوح في شعر الارض المحتلة أما واخنا وحبيبه - يتغلغل في كل هذه الافاصيص .. يطفو على السطح نارة .. وينبض تحت جلد الاحداث اخرى .. بينما يبرق للحظة خاطفة وفي الخلفية البعيدة نائمة . ولكنه يرين ابداً فوق آفق جميع الافاصيص . ويسفر هذا الاحساس العميق بالارض عن نفسه في صور متعددة تخلق عدداً من التجسور بين انسان الارض المحتلة وارضه وتراثه ، فيلوح مرة تشبهاً شديداً بالارض وادراكا واعيا لانه سيفقد كل شيء يفقدانها .. العمل والامل والكرامة ، وحتى الكينونة الانسانية ذاتها . ويلوح اخرى احساساً حاداً بالمواطنة وبالانتماء الى هذه الارض التي تسيطر عليها اقدار جائرة . بينما يتبدى نائمة احساساً متوهجاً بالتاريخ الطويل المستمر ، وبالجنود المتغلغلة في الارض ، واتصالاً وثيقاً بالماضي ، بتراثه المحفور في اخابيد الارض ، وباسلافه الذين ينضون في عروقها جيلاً وراء جيل . ويسفر عن نفسه مرة رابعة في تلك الرغبة الحارة في التعبير والبناء والحرق والبذر .. فالارض برغم كل شيء ارضهم وان كان زمامها ليس في ايديهم اليوم فسينقل اليهم غداً . بينما يظل مرة خامسة من خلال ذلك الاحتفاء الشديد بالذكريات الصغيرة والملاحم المحفورة في القلوب ، وبالانضساريس التي لا ننسى ، يرغم سنيين التشرذم والعسف والحمران .

ففي مجموعة توفيق فياض « الشارع الاصفر » (1) نلمس ذلك الاحساس العميق بالارض في كل افاصيصها . في « الشارع الاصفر » وفي « الراعي حمدان » وفي « أم الخير » وفي « الكلب سمور » يطل ذلك الاحساس بوضوح سافر من صرخة امين اسعد يطل قصة « الشارع الاصفر » في وجه ريتا الاسرائيلية التي تناشده ان يختار المنفى : « لن اهجرها ابداً ، لانني اذا هجرتها تهجرني روحي وان نسيتهما ينساني الفرح » . وفي كلمات حمدان الواضحة فسي

( ١ ) نشرت طبعها الاولى بالناصره ، مطبعة واوفست حكيم ١٩٦٩

« الراعي حمدان » : « بطلعش من هابلد ، لو بقطس بزفافاها وبلقاش مين يدفتي ! حمدان قال كلمته وبرجش فيها .. بكد شرق يا نذل شرق ، اما حمدان درب النذال ماهيشى دربه . وعمره ما نقل فوفها قدم .. مية القرية عشاربها حنظل ، وبرسيمها الاخضر ع الغنم عتيق » . في هذه الكلمات نوحده الارض بالحياة ويتساوى هجرانها مع الموت ، وتلوح أما واخنا وحبيبه . أما في « الكلب سمور » فاننا نحس بهرارة كلمت قاسم المتناعة وهي تقدم لنا في ايماءة سريعة حنظل المنفى بعد ان قاوم الطلب سمور كل محاولاتهم وعاد الى ابلدته المهجورة : « ع اول رجع يموت في الدار بنا .. مس مننا ، نموت مهجرين من الجوع والعطس ، لا بيت ولا ماوى » . فما اطاق انكلب مرارة المنفى واطفها الانسان . وها هو فاسم يقدم لنا في كلماته المركزة تلك معنى هجران الارض .. انجوع والعطس ، اتوت بلا بيت ولا ماوى . او بمعنى اكثر شمولاً فعدان الانسان لانسانيته ووجوده .

وفي « لاننا نحب الارض » (٢) نحس بذلك التشبث المستميست بالارض ، ورفض كل الافتراءات المفصوحة للدولة الصهيونية ، تلك الافتراءات التي تدعي ان مرج بن عامر ، اخصب الاراضي الفلسطينية، كان احراشاً مملوكة للدولة . وكان هباط بل العدى الذي حدث عام ١٩٠٩ ، وقبل قيام الدولة المزعومة باربعة عقود كاملة لم يدفن تحته اربعمائة انسان في هذا المرج الخصيب انذي يركض على نفس واحد من بحيرة ظرية الى جبال الكرمل الجنوبية (٣) .. نلمس في هذه الفصحة مقابله فنية ناضجة بين الانصاق الحميم بالارض والعمل بها ، وبين ادعاءات الدولة الصهيونية واقتراءاتها . وفي « اللجنة » لمحمد علي طه (٤) يسفر هذا الاحساس العميق بالارض وبالمواطنة عن نفسه من خلال تلك الرغبة المخلصة في البناء والتعمير . وذلك التسوق العارم الى تغيير اقدار هذه الارض والسيطرة على اعنتها . وفي « الاخذ بالثار » (٥) نجد صورة اخرى لرغبة البناء والتعمير تلك .. صورة يصبح فيها التعمير واحداً من سبل الخلاص من جهامة العجز والاحباط ، وبشيراً بافتراق اللحظة التي ينهض فيها الفلسطيني عن نفسه عار الشلل والهزيمة . وفي « الميراث » لمحمد خاص (٦) يذهب الفنان بهذا الاحساس العميق بالارض خطوات بعيدة . اذ يصبح هذا الاحساس جزءاً من الموروثات اليقينية الثابتة التي يذرهما الاجداد في نفوس الابناء والاحفاد ، وينقلت من محدودية الملكية المباشرة ليستوعب كل الارض التي يسيطر عليها المقتصب الصهيوني ، اذ يدفع الجسد حفيده عندما يمر بالارض التي كانت له والتي اغتصبها منه الصهاينة ان يبذر قبضة فمح في هذه الارض ، حتى يتعمق في داخله، وبشكل حسي ملموس ، اليقين بان الارض ارضه وبان الوطن وطنه . اما في « الخرزة الزرقاء وعودة جيبنة » لاميل حبيبي (٧) وهي واحدة من القصص الست التي تكون روايته الرائعة « سداسية الايام الستة » فاننا نتعرف على تلك التذكريات الصغيرة التي ظلت محفورة في وجدان الفلسطيني طوال عشرين عاماً من النفي والتشريد .

ولنتنقل الان الى السمة المشتركة الثانية ، وهي شديسة

- ( ٢ ) نشرت بمجلة « انطريق » البيروتية ، عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .
- ( ٣ ) راجع توفيق زياد « عن الادب والادب الشعبي الفلسطيني »
- ( ٤ ) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية ، عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .
- ( ٥ ) نشرت بمجلة « الاداب » البيروتية عدد مايو ١٩٧٠ .
- ( ٦ ) نشرت بمجلة « انطريق البيروتية » عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .
- ( ٧ ) نشرت بمجلة « انطريق البيروتية » عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .

يستند - بعد ذلك بأعوام طويلة - « الى جذع بينه قديمة .. وعيناه سرحان فوق نلال الغرب .. وفي الليل ، فوق السطح .. خنجر في حزامه ، ومفلاع قديم ، بينما يكون رجح أرغوله الذي لا يعرف الملل ، آخر ما يراقق فارس الليل ، ذا الجواد الأشهب ، في خطرته بيسن كروم الليل والزيوتن » .. فدما الفادي لا نخلص حياته فحسب من هذا صنوف اندل وانهوان ولكنها نخلص حياة الاحياء انفسهم من هذا اندل ونرهب في اعماقهم الاحساس بالارض والحياة .

ففي « الاخذ بانثار » لمحمد نفاع نجد ان دماء جدهان المسفوحه غدرا هي التي اشعلت في الفرية الرغبة في بناء الحياة ، وهي التي حمت الفرية من ان تدفع المزيد من دم بنيتها ، ووفرت لهم الحياة الامنة الرخية . وفي « الجمجمة رقم ١٤ » لمحمد نفاع (٨) ايضا نيقن من انه اذا ما مسحت الارض الفلسطينية المحتلة ، فسوف توجد تحت كل شبر جماجم الذين ضحوا لنبقى هذه الافلية المضطهدة حائلا بين اليهودي والتفلفل في هذه الارض . وفي « الشاطيء المهجور » لممدوح صغدي (٩) نرى كيف تدفع فرية باتكملها دماها وأمنها وبيونها لنا لحياة انسان فلسطيني فوق ارضه ، وكيف ان ثمن البقاء فسوق ترى الوض باهظ الى هذا الحد ، دموي الى هذه الدرجة . وفي « الفرس » لتوفيق فياض نجد ان الصمود والمقاومة كانا السبيل الوحيد الذي مكن بو حسن من مواصلة الحياة فوق ارضه وانهما ايضا الطريق الذي عليه ان يسلكه للاحتفاظ بها في وجه اوامر المصادرة الزائفة : « لقد عانق ارضه في جحيم الحرب حيث هجر معظم الناس ارضهم ليقبى في فربها ، وسيعانقها الان مرة اخرى الى ان يلفظ عليها انفاسه . اما ان يتخلى عنها فهذا مستحيل ، ولا بد له من ان ينتصر في النهاية » . هنا يبدو بوضوح النوح بين الفداء والمقاومة وضرورة البقاء فوق توى الوطن .

اما في « الشارع الاصفر » فاننا نلمس عددا من اساليب المقاومة الاخرى غير التضحية والفداء ، مثل المظاهرات والاضرابات وتمجيد ذكرى الشهداء الخمسة الذين اغتالهم حرس حدود الدولة اليهودية . فالشارع الاصفر كما يقول ابن خلدون في دراسة له عن المجموعة في مجلة « الجديد » التي تصدر في حيفا « هي قصة المظاهرات التي اجتاحت حيفا قبل سنوات حين سقطت خمس زهرات في مقبل العمر على الحدود بحجة محاولتهم تخفي الحدود الى الاطوار العربية .. آنذاك تمساجت الجماهير العربية في كل مكان بالقضبة والنفمة » (١٠) . وفي « الخط الوهمي » لمحمد علي طه (١١) فاننا نحس بأنه حتى العواطف الانسانية الصغيرة لا يمكن ان تتحقق الا من خلال التمرد على الصنف الصهيوني ومقاومته . فلم يتحقق اللقاء بين بطلها وصديقه الا بعدما برمد على هذا الصنف واعلنت عن تمرده تلك الصفة الداوية التي صك بها وجه الجندي الذي اراد ان يحول بينه وبين هذا اللقاء الانساني البسيط . وفي « لقاء بعد عشرين عاما » لنبيل عودة (١٢) نحس ان الالتقاء الحقيقي بالام .. بالارض .. يستحيل تحققه طالما بقي العدو الصهيوني فوقها ، ومن ثم فلا بد من مواجهة هذا العدو الشرس بصورة دائمة . وفي قصة « لا لون للدم في الليل »

### التتمة على الصفحة ٧١

- (٨) ، (٩) نشرنا بعدد مجلة « الطريق » البيروتية الخاص بادب المقاومة ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨  
(١٠) ابن خلدون اسم مستعار لناقد عربي يكتب في « الجديد » وقد اعيد نشر مقاله هذا في مجلة « الطريق » البيروتية عدد نوفمبر ١٩٦٩ .  
(١١) نشرت بمجلة « الاداب » البيروتية ، اغسطس ١٩٦٩ نقلا عن « الاتحاد » .  
(١٢) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ نقلا عن « الجديد » .

الاتصاق بهذا الاحساس العميق بالارض وثابتة من نوجه في كسل افاصيص الارض المحتلة .. هذه التهمة هي التاكيد على ضرورة الفداء والمنافحة عن الارض وعن البقاء فوقها . وبهذه الضراوة الفدائية وحدها يؤكد العربي الفلسطيني حقه في البقاء وجدارته به . فاي نهساون ضئيل لا يفقد الارض وحدها بل يفقد انسانيه ذاتها . وتأخذ هذه التهمة الجوهرية الهامة طابعا شديدا انتضج والشفافية ، اذ تضطر لان تسفر عن نفسها عبر عدد من التحويرات المخلفة ، ومن خلف غللات تتخفى بها وسفر من نفسها مسن ورانها في دمس الوفا . فالعصص العربية المكوبة في الارض المحتلة تعام الدوله الصهيونية ، لا يبدا تصور من خلال سيطرة هذه الدولة الرقابية على شتى وسائل التعبير . ومن ثم يعمد الفنان وخاصة بالنسبة لهذه القضية التي يدعو فيها الى تقويض هذه الدولة من اساسها الى عدة اساليب يحاول من خلالها بالرمز تارة ، وبالمعادلات الموضوعية الشقيقة اخرى ان يمجد الفداء والمقاومة ، وان يقوم في عمله الفني بما تقوم به قوات الفدائيين بالعمل العسكري . لذلك نجد ان الفداء في الافصوصة العربية في فلسطين المحتلة ليس شعارات زائفة ، او احداثا خطابية عالية النبرة ، ولكنه روح تسري داخل العمل الفني ، تكمن في التركيب البنائي للاحداث بقدر كونها في طبيعة الشخصيات وفي تاريخها الطويل مع الاضطهاد والمذاب . ومن ثم يصبح الفداء جزءا من تكوين الحدث والشخصية معا ، ويصبح الدم المراق هو طقس التعميد الضروري في عرس الحياة ، وهو السبيل الوحيد الى فلسطين الجديدة .. فلسطين الحرة .

واذا كان الفداء هو طقس التعميد الضروري لانساق الحياة وصيرورتها داخل الارض المحتلة ، فان اساليب النضال العديدة الاخرى تصبح الخبز اليومي للعرب فيها ، حيث نلمس في اغلب افاصيص الارض المحتلة احتفاء واضحا بهذه الاساليب النضالية المشروعة منها وغير المشروعة ، وابتازا واضحا لدور هذه الوسائل في خلق التراكمات الكمية التي تهيء الواقع والانسان معا للحظة التحرر الكيفية القادمة بلا ريب . ومن هنا لا تخلو واحدة من هذه الافاصيص من الاشارة الى الفعالية الواضحة للاضرابات والمظاهرات وحركات التمرد والعصيان ، او الى تمجيد الصمود والصلابة في مواجهة العنف والتحايل على القوانين المدوانية الجائرة ، او من التاكيد على حوادث الاغتصاب الجماعي باعتبارها الوقود الاتمي الذي يذكي روح الكفاح ويبقي على جنونه متوهجة مشتعلة ، فادرة على مواصلة الرحلة المسيرة نحو بشائر الحق والانتصار .

ففي قصة « النبع » لتوفيق فياض من مجموعته «الشارع الاصفر» نجد ان تضحية سالم البطولية كانت الثمن الذي أمن حياة القرية ، والذي مكن ابناءها من مواصلة الحياة بعد ان تهدم الموت طويلا . ولذلك فان القرية كلها تذكر تضحيته وتخلص لذكراه . وفي « ام الخير » من نفس المجموعة نكبر تضحيته حسن الحرات من اجل ام الخير العصية على الزمن والقهر والمرض ، العتونة كالارض السخية ، فبعد ان كان كل ما لديها للجميع ، وبعد ان كانت بهمة يدعا الخير تسفي المرضى وتهدهد المحزونين ، امتلا جسدها - بعدما لدتها الاقصى الصهيونية السامة - بالقروح ، وهرب الذين طالما استمروا خيرها الى التلال والكروم المقلبة . لكن حسن ظل وفيها لها مخلصا لجها ، يروي جذعها الذي عجز عنه الموت فاستحال الى شجرة بقروحه ودمه ، فتسورق في جفافه البراعم ، ثم تتساقط من الاغصان الدموع فتسفي القروح من جسد حسن الجهد بالطنفات . ولولا دماء حسن وتضحيته لما كبرت الشجرة الفلسطينية حتى اصبحت « تحتضن باغصانها المخضرة بيوت القرية كلها » . وفي « الراعي حمدان » نجد ان صراع حمدان مع الذئاب ، ذئاب الغدر والعنوان الرابغة في الاستيلاء على ارضه والنهال خرافه ، وان دماها التي سالت في هذا الصراع الضاري الذي لم يكن يملك فيه سوى خنجره وذراعه ، هي التي مكنته من ان

## الاقصوة العربية في فلسطين

تابع المنشور على الصفحة ٢٠

لمحمد خاص (١٢) نجد ان رباط الدم هو الذي يوثق بعري لا تنفصم الرباط بين كل العرب المقيمين في فلسطين المحتلة ، وهو الذي يوحد بينهم جميعا . ولتكثف بهذا القدر من التدليل على سريان روح الفداء والمقاومة في أغلب الاقاصيص الفلسطينية . وقد اطلنا في تأكيد هذه الجزئية قليلا لانها تدمغ بدمائها المتوهجة كل الدعاوى القائلة بان ادب الارض المحتلة ادب احتجاج ومعارضة ، وليس ادب ثورة ومقاومة .

تأتي بعد هاتين السمتين الهامتين السمة الثالثة المميزة لقصص الارض المحتلة وهي النظرة الجديدة لهزيمة العرب في يونيو ، والروح المتفائلة التي ينظر بها الفنان العربي الفلسطيني الذي عانى عشرات المصاعب والخطوب الى هذه الهزيمة العارضة التي ظنتها الدولة اليهودية تكريسا نهائيا لعنوانها البشع ، فلم ير في هذه الهزيمة سوى تكاثف الظلمة في ( آخر الليل ) او ( دخان البراكين ) المؤذن بانفجار حممها . ولم تكن هذه الهزيمة بالنسبة للفنان العربي في الارض المحتلة سلبا مطلقا ، اذ ايقظت فيه عدة اشياء ايجابية ارهفت فيه الاحساس بوحدة الوطن الذي ضمت الهزيمة نصفه المشطورين ، ووحدت بذلك مشاعر الشعب الفلسطيني كله ، وطرحت قضيته بصورة جديدة ، وعمقت ادراكه لتلك العلاقة الجدلية بين السلم والحرب ، حيث تيقن ان الطريق الى السلام والامن المرتجى هو الحرب والفداء والمقاومة . فكما تكشف الحرب لا انسانية الانسان فانها تثير فيه انسانيته ، كما وضعت هذه الهزيمة الانسان الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها امام ذاته المهذرة وامام السؤال القاسي الرهيب : وماذا بعد !؟

ففي قصة اميل حبيبي « السلطعون » (١٤) نلمس كيف ردت صدمة حزيران القاسية بظلمها حريز اليقظان الى ذاته ووضعته وجها لوجه امام السؤال المرير القاسي .. وماذا بعد ؟ او ما هي النهاية ؟ . وتنتهي بنا القصة وقد تاكدنا من ان هذه الصدمة قد اكدت للعربي الفلسطيني ضرورة ان يتلفت حوله - لا في داخله - بوعي وفهم جديدين . وان يشارك بفاعلية في كل وسائل النضال المشروعة منها وغير المشروعة حتى يساهم في خلق الفجر المرنقب .. ويؤكد على نفس هذا المعنى توفيق فياض في « ليلة القدر » ، تلك الليلة التي ستأتي حتما ولكن بسعينا نحن وليس بانتظارها . ومن هنا يكتسب خروج بطلها سنية في الليل ، وظلوع القمر المبارك لخروجها دلالات عديدة ، في مقدمتها دلالة الفداء المبارك من الطيعة والحياة .. واستنفاة البصيرة بنور الطريق الصحيح .. واقترب الفجر بعدما تكاثفت الظلمة طوال هذه السنين .. وغير ذلك من الدلالات .

وهذه الهزيمة نفسها هي التي اخرجت الاستاذ ( م ) النموذج الملخص لقطاع كامل من فلسطيني الارض المحتلة في قصة « واخيرا .. نور اللوز » لاميل حبيبي - من قصص السداسية - من فوقته ، وهي التي دفعته الى الخروج من اهاب ذلك الخنوع الرهيب الذي استسلم له طوال اعوام عديدة ، ففقد بذلك ذاته وانسانيته . وهي التي ايقظت في « ام الروبايكا » - من قصص السداسية ايضا - حنينها القديم في وصل التواريخ المقطوعة وراب صنوع تيار الحياة

الانسانية المتواصل . وهي التي اتاحت ليوسف المجدلاوي في قصة محمد خاص « الميراث » ان يؤكد ان الارض في اعماق حفيده . وان يعقد بينها وبينه تلك الصلة العضوية الحميمة . وهي التي ايقظت بو علي بطل قصة توفيق فياض « الحارس » على بشاعة الواقع الذي يعيشه واهاجت ذكرياته واشجانه وعمقت في داخله مرارة المفارقة . وهي قبل كل هذا ومعه التي عمقت في وجدان الفنان الفلسطيني حس العودة وبلورته كواحدة من السمات المميزة لادب المقاومة في فلسطين المحتلة .

وليست العودة - السمة الرابعة المشتركة في اذاصيص الوطن المحتل - هي نفس العودة التي افناها فيما اصطلح على تسميته بادب العودة .. ذلك الادب المكتوب في المنفى التائق للوطن . ولكنها عودة مفارقة الى حد كبير .. عودة من لم يفقد الارض ولكنه فقد الامان والوطن بانشطار الوطن الفلسطيني الى نصفين ، نصف في المنفى ، ونصف في الاسر . كل من النصفين يحن الى الاخر . ولكن حين الاسير ، القاعد في وطنه المحروم منه غير احساس المنفى الذي يحمل الوطن على ظهره ذكريات ومشاعر . فقد حرم الفلسطيني الذي مكث في الارض المحتلة من عذوبة هذا الحلم الرومانسي الذي عاشه المنفى ، وشاهد بنفسه عالم الذكريات - التي ينمى بها فلسطيني المنفى - وهو يتقوض ، وفلسطين الام وهي تنهار وتمسخ ، ومن ثم كانت العودة لديه هي الحلم بالانفلات من هذا الكابوس الراهن ، والتحرر من هذه المواضعات الحضارية الظالمة ، والحنين في نفس الوقت الى النصف المنفى من الوطن كواقع ومواضعات . ليس الحنين الى اللحاق به في المنفى ، ولكن الحنين الى التوحد معه في ظل ظروف جديدة وحياة جديدة .

ففي « كلمات تقال » لمحمد علي طه (١٥) نلمس عمق احساس فلسطيني الارض المحتلة بالوطن المنفى وبذويهم الذين غابوا معه خلف الحدود . وتواصلهم الحميم بهذا النصف الآخر الغائب ، وهذا نفسه ما نلمسه في قصته « سلاما وتحية » التي عنوان بها المجموعة القصصية الاولى له والتي صدرت في الوطن المحتل في العام الماضي (١٩٦٩) . ويقدم لنا نفس الكاتب في قصة « اسبانيا » .. وهنا اليباء بالاسم موفق جدا ، صورة تهكمية من قانون « الحاضر غائب » بالذات .. صورة تظهر مدى ارتباط المرثدين في ديارهم بارضهم التي تحولت الى اطلال .. وبذويهم الذين تحولوا الى لاجئين كما يقول غيف سالم في دراسته عن المجموعة بمجلة « الغد » في حيفا (١٦) . اما « الخط الوهمي » لنفس الكاتب ايضا فانها تقدم لنا تجسيدا فنيا للحظة اللقاء بين الشطرين .. بين المنفى والاسير .. ذلك اللقاء الذي يستحيل تحقيقه دونما تمرد على المواضعات الجائرة . وتقدم قصة نبيل عودة « لقاء بعد عشرين عاما » صورة اخرى لحلم العودة وهو يوشك ان يتحقق .. بينما تجسد لنا « حين سعد مسعود بابن عمه » لاميل حبيبي .. نوح الفلسطيني في الارض المحتلة الى نصفه الاخر ، وكيف ان النقاء الشطرين المرثدين هو الذي حقق تكامل الحياة للانسان الفلسطيني . فحينما التقى مسعود بابن عمه بدأت سلسلة احداث انسانية عديدة تحدث للمرة الاولى في حياته .. مؤكدة في نفس الوقت السمة السابقة ، وهي ان حتى الهزيمة لها جانبها الانساني في قصص الارض المحتلة .. لان الهزيمة هي التي جعلت هذا اللقاء المستحيل ممكنا . ولاميل حبيبي قصة اخرى - من السداسية - هي « العودة » تقدم لنا تنويعات فنية ناضجة من خلال لقطات شعرية متعددة من هذا الحدث الانساني الكبير .. حدث العودة . اما قصة « الحب في قلبي »

( ١٥ ) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية عدد نوفمبر ١٩٦٨

وديسمبر ١٩٦٨ نقلا عن « الاتحاد » .

( ١٦ ) اعادت مجلة « الطريق » نشر هذه الدراسة في عدد

نوفمبر وديسمبر ١٩٦٩ .

( ١٢ ) نشرت بمجلة « الطريق » البيروتية عدد يوليو ١٩٦٩

نقلا عن « الاتحاد » .

( ١٤ ) نشرت في « الآداب » البيروتية ، ابريل ١٩٧٠ نقلا

عن « الجديد » في حيفا .

من السادسة ايضا - فانها تقدم التكييف الكامل لفكرة العودة من وجهة نظر العرب المقيمين في الارض المحتلة .. العودة الى فلسطين الماضية ، ولفكرة التفاء النصفين الشطورين والتحامهما الانساني الحميم .

السمة الخاصة التي تسري في اغلب اقصيص الارض المحتلة هي التأكيد على انغلاق عالم المدينة - رديف الحضارة - في وجهه الفلسطيني في الارض المحتلة ، ومحاصرة البقية الباقية من العرب في الريف . وقد ادى الالتصاق بالريف الى تبلور الصلابة في وجه العسف والاضطهاد لدى ريفي الارض المحتلة من العرب في مقابل التحلل النسبي لمن استطاعوا ان يفسحوا لهم مكانا وسط زحام المدن الصهيونية . لان هذا يعني انهم قد انحنوا امام المخطط الصهيوني الراغب في تذيب الشخصية الفلسطينية في هذا الكيان العنصري المشوه . ففي « الشارع الاصفر » نلمس هذه الحقيقة بوضوح من خلال هذا الفيتو العربي المضطهد في مدينة حيفا . ومن خلال محاولة نماذجه المتحللة المريضة الانتماء الى عالم العدو المستوطن فوق اشلاء الالف الضحايا . اما الشخصية المتناقضة لهذه الشريحة والتي تكاد تنخرط فيها بعد تجربة السجن المريرة ، اعني شخصية امين اسعد ، فانها تبدو لنا وقد ترك الاضطهاد بصماته عصابة على نفسيته وسلوكها .

والحقيقة ان الفلسطيني الذي يعيش في عالم المدينة في الارض المحتلة لا يجد امامه حيال المواضع الجائرة سوى سبيلين .. احلاهما في مرارة الحنظل .. اما اللبان في هذا الكيان العنصري المشوه ، والانضمام الى الجيتو الجديد ، واما المكوف على الذات والتوقع فيها .. اما اذا ما رفض السبيلين فان ابواب السجن والتعذيب والمحاصرة تفتح له على مصاريحها . هذا ما يحدث لامين اسعد بطل « الشارع الاصفر » ، الذي رفض الانخراط في الجيتو المطعون الذي يرقص حتى الصباح .. ورفض ايضا مصير حريز اليقظان بطل « السلطعون » الذي طارده عصاب الاضطهاد حتى قتله . فالانفلاق على الذات مع الوعي بلاعدالة الواقع ولاانسانيته ، ما يلبث ان يقوده الى الموت كمداء . وحريز اليقظان هذا صورة اخرى من الاستاذ ( م ) بطل « واخيرا .. نور اللوز » الذي نسي شخصيته وانسانيته من طول انفلاجه على نفسه وتملصه من مسؤوليته حيال العالم المحيط به .. اما بطل قصة توفيق فياض « قطبي الشقراء » فانه تجسيد في رائع لكل عصابات الاضطهاد التي يعاني منها ابناء المدن من العرب في الارض المحتلة .. هؤلاء المحرومون من الاصدقاء ومن الحياة الحرة دونما خوف ومن التحقق .

في مقابل هذه الصورة التي تقدمها قصص الارض المحتلة لانسان المدينة العربي نجد صورة الريف المتشبت بالارض ، الصلب في مواجهة مؤامرة العسف والتزييف . نجد هذه الصورة في « لانا نحب الارض » لمحمد نفاع وفي « الراعي حمدان » و « الفرس » و « الحارس » و « السديك الصانع » لتسويق فياض ، وفي « اللجنه » و « سلاما وتحية » لمحمد علي طه وفي « الميراث » و « لا لون للدم في الليل » لمحمد خاص وفي « ايام غيراء » لعفيف سالم و « مع القروب » لمصطفى احمد ( ١٧ ) .. في كل هذه القصص - لاحظ وفرتها النسبية في مقابل اربع قصص تتناول عالم المدينة - نجد صورة حية للصلابة

والتماسك والرجولة والتشبث بالارض وبالكرامة وبالحياء .

انتقل بعد ذلك الى السمة المشتركة السادسة وهي الاحتفاء الشديد بالطبيعة وتوظيفاتها توظيفا فنيا ناصجا .. ويرتوي هذا الاحتفاء بالطبيعة من توق الانسان الفلسطيني - من خلال الفنان بالطبع - الى التأكيد على ان حقوقه التي ينافح من اجلها جزء من نوااميس الحياة المقدسة ، وان وفوف الدولة الصهيونية في وجهه هذه الحقوق موقوف بطبعه لانه وقوف ضد ارادة الحياة وضد طبيعتها ومن ثم تحثفي الاقصوة العربية في الارض المحتلة بالقمع والنبات والحيوانات الاليفة والصارية ، وكل مظاهر الحياة البكر . اما الطفولة .. الصورة العفوية البكر للحياة فانها تحظى في هذه الاقصيص باهتمام كبير .. وخاصة لدى محمد نفاع في معظم اقصيصه التي قرأتها ولا سيما في « حميد .. احمد .. واخرون » ( ١٨ ) في هذه الاقصوة المرفقة تشهد قداسا جنائزيا لعذرية الحياة وبكرتها التي اغتالها جنود الصهاينة في اجساد اطفالها الاثني عشر الفضة .. قداسا تشارك فيه كل جزئيات الطبيعة .. النهر والتل والمقارة .. الحقول والكروم .. الضوء والظلمة .. وتقف متجهمة حدادا على هذه الزهرات الفضة التي اغتيلت الحياة معها ، واحتجاجا صامتا على هذه المذبحة البربرية المروعة والتي فاقت في بشاعتها مذبحة كفر قاسم او دير ياسين . فالطبيعة في الاقصوة الفلسطينية المكتوبة في الارض المحتلة ليست منظرا خلفيا مكملا ، ولكنها احد العوامل النائية الاساسية - كالحديث والشخصية - التي يقدم من خلالها الفنان الفلسطيني ما يريد ان يقوله .

ومن ثم فان الطبيعة في هذه القصص تستحيل الى رموز حادة مثقلة بالدلالات ، تساهم في رحلة التخفي والتملص التي تقطعها هذه الاقصيص حتى ترى النور ، عبر اجهزة النولة اليهودية الرقابية . ومن ثم فان دراسة الطبيعة في هذه القصص تحتاج الى وقفة متأنية .. وخاصة في اغلب اقصيص توفيق فياض . وفي ( نفق الى النور ) لطارق عون الله ( ١٩ ) و ( الميراث ) لمحمد خاص و ( الشاطيء المهجور ) لمندوح صفوي و ( الاخذ بالثار ) و ( الجمجمة رقم ١٤ ) و ( لانا نحب الارض ) لمحمد نفاع ايضا وفي ( السلطعون ) و ( السادسة لامليل حبيبي ) .

تبقى بعد ذلك مجموعة من السمات والملاحم المميزة التي تتصف بها هذه الاقصيص .. بعضها امتداد لهذه السمات الرئيسية الست او تفرع عنها ، وبعضها الاخر ما زال جزئيا ولم يشمل سوى بعض النماذج دون معظمها . من هذه السمات - وسأكتفي هنا ولصيق المجال بالاشارة السريعة اليها - كثرة الاشارة الى حالات العجز الجسدي او الروحي . والاحالات المدينة الى الاساطير والحكايات الشعبية ، والتصوير المرفه لعالم الطفولة المنتقد للطفولة المطارد بالمجازر الوحشية الرهيبة ، والتقدس الواضح للعمل والبناء وللزرع والبذار بصفة خاصة ، والاحتفاء المبالغ فيه احيانا بالتذكارات الانسانية الصغيرة .. واستخدام الحيوانات كرموز بمنهج يقرب كثيرا من منهج ( كليله ودمنة ) في بعض الاحيان ، والاكبار الواضح للعمل الفدائي الفلسطيني انظر ( كلمات تقال ) - التأكيد على ان الفلسطيني يفقد نفسه حينما يفقد قضيته .. وغير ذلك من السمات الجزئية التي تعمق مع السمات

( ١٧ ) ، ( ١٨ ) اعيد نشر هذه الاقصيص بمجلة « الطريق »

١٩ - « الآداب » البيروتية مارس ١٩٧٠ .

نوفمبر وديسمبر ١٩٦٨ .

الرئيسية الملامح الخاصة لعالم هذه الاقصوصة وتباور معها لتعودها ورؤاها لقيمتها ولانسانها .

كل الملامح التي تحدثت عنها من قبل اكثر التصاقا بعالم المعنى منها بعالم المبنى في هذه الاقصيص . والحقيقة ان تناول الملامح لهذه الاقصوصة بسرعة وفي نهاية النراسة عمل فيه اجحاف كبير لها ، لانها تحتاج الى دراسة ضافية خاصة . وسوف اكتفي هنا بالاشارة الى عدد من الملامح الهامة حتى يتاح لي ان اعود لها ، او يعود لها غيري في فسحة من الوقت . واول هذه الملامح واهمها هو ذلك الطعم الخاص للمعنى في اغلب هذه الاقصيص . ويرتوي هذا المذاق الفريد من اقتراب هذه الاقصوصة الشديد من روح الحكاية الشعبية رؤبة واسلوبا ، ومن لجونها الى الكثير من اساليب تحظيم الفواصل بين الملتقى والحدث في نفس الوقت الذي تلجأ فيه الى الفنتازيا الاسطورية التي تستمد مادتها وتصوراتها من عالم الميثولوجيا الشعبية والدينية . السمة الثانية في بناء هذه الاقصوصة هي الاعتماد على الحوار الجدلي بين جزئيات الحدث وبين المصادر المتباينة للحقيقة - فنية كانت او واقعية - فيه . والتجاوز النسبي عن اسلوب المقدمات التي تقود بدورها الى نتائج منطقية . فالفنان الفلسطيني يتعامل مع اكثر الوقائع ضراوة وتعقيدا ويصدر من خلال اثرس المؤسسات رقابة وقمعا . ومن ثم كان على عمله ان يعكس كل هذه الحقائق في مبناه وفي معناه معا . والسمة الثالثة هي التركيز والتكثيف ووجود اكثر من مستوى واحد للمعنى في القصة الواحدة . وتتبع هذه المستويات المتعددة للمعنى من الاستعمال الحاذق لاسلوب المفارقة كاساس بنائي . وليس من اللجوء الى المجازات او الرموز .. ولا يعني هذا خلو هذه الاقصوصة الفلسطينية من الرموز ، بل ان الاهتمام بالرمز يشكل السمة التالية لها . ولكن الرمز هنا شيء

غير الرموز المتبدلة التي تقعد حتى عن ان تكون دلالة واضحة او مجازا . فهو رمز شفيف للغاية . موح .. عامر بالدلالات . لا ينبع من معادل فني محدود الدلالة ولكن من الصورة الكلية لعلاقات المفارقة والتوازي في العمل الفني . السمة الخامسة هي الفنائية بمعناها الشعري الريح ، تلك الفنائية التي تعتمد على الاستخدام الحساس للفسة الشعرية الموحية غالبا ، وعلى اسلوب المونتاج في البناء احيانا - انظر ( نفق الى النور ) و ( العودة ) - وعلى الاشارات المرهفة للطبيعة ، وعلى الحديث عن شيء من خلال شيء آخر .. وعلى غير ذلك من اساليب الشعر البنائية . وهناك .. والى جانب استخدام كل هذه الاساليب البنائية الراقية تسير جنباً الى جنب رغبة الفنان الفلسطيني في الوضوح وفي الوصول الى الجماهير . وفي خلق شفرته الخاصة بينه وبينهم .. شفرة يفهمونها هم ولا يفهمها العدو ، او يحس بها ولكنه لا يستطيع القبض عليها .. ومن هنا كانت سعادة الفنان الفلسطيني وعذابه معا .

وفي النهاية . فان كل هذه السمات المشتركة التي يلوح خلالها كتاب الارض المحتلة وكانهم يصرون عن رؤية واحدة وعن موقف فكري واحد ، او كانتهم فنان كبير واحد يمسك بعشرة اقلام ، لا تنفي بأي حال من الاحوال تفردهم بالصورة التي يصبح معها لكل كاتب منهم داخل هذه السمات المشتركة ومن خلال عالها الريح عاله الخاص الذي يرتوي من خبراته الخاصة ومن الرقعة الزمانية والمكانية والانسانية التي خبرها وعانى تفاصيلها ، والتي استطاع من خلالها ان يستوعب الهموم العامة لهذا العالم الانساني الفريد .

صبري حافظ

القاهرة .

# النِسَاطُ الْجَنَسِيُّ وَصِرَاعُ الطَّبَقَاتِ

تأليف رايوت رايش

ترجمة محمد هيتاني

« هذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليدة الى القارئ العرب الذين يبحثون عن اسهام في حلول صحيحة لمشاكلهم على اساس منهجية سليمة ، ويعرف النظر عن المحرمات الفيبية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .. فهو يدرس ، على اساس علمي واحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين اساسيين من المجتمعات الراسمالية المتطورة : جمهورية المانيا الاتحادية والولايات المتحدة الاميركية. حيث يحدث التطور - ليس نحو الافضل - لوضع الحياة والعلاقات الجنسية تحت نير الاستثمار الراسمالي الاحتكاري، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقا ، للنضال ضد القمع الحقيقي الذي تعانیه الطبقات الشعبية في اوضاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية . ويضع المؤلف يده على العلل الرئيسية التي تطبع مشاكل هذه المجتمعات الراسمالية في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي ادماج كل الحياة الجنسية لجميع فئات الامة داخل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحياة الجنسية وجعلها مجرد سلمة ، واعطائها وظيفة فرض استهلاكي ، وحرمان الجسد البشري - معجزة الطبيعة الرائعة - من مزاياه الجنسية والوجدانية ، وصراف الفرائز الجنسية نحو نزعة عدوانية موجهة .. وليس هذا كله سوى الشكل الراهن للاستثمار الراسمالي .. ولذلك فان مسألة « الاستراتيجية الجنسية » لن تجد مكانها الا في المجمال التلاحم من النضال السياسي المضاد للراسمالية ، دفاعيا وهجوميا ..

وقد اعتمد المؤلف على منهجين قد يتنوان متناقضين : هما المنهج الماركسي والطريقة الفرويدية ( علم التحليل النفسي ) ليؤكد قانونا اساسيا صفة الشمولية ، ويمكن ان نفد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعا العربي ، وهو « قانون التكييف الراسمالي التصيلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الراسمالي ، مجتمع الاستثمار والاصطهاد لجماهير المنتجين » .

صدر حديثا

٦٠٠ ق . ل .